المضحك في مصر العثمانية

دكتور / عيد فتحى عبد اللطيف [1]

ملخص البحث:

كانت الفكاهة –وما زالت– أهم ما يميز المصريين ؛ إذ فكاهة المصريين قديمة منذ عصر الفراعنة، وتتضح في الصور التي خلفوها ، وظلت هذه الروح الفكهة لا تفارقهم في عصر الرومان، كما نراها ماثلة في الشعر المصرى منذ أخذت مصر تتبين شخصيتها في عصر ابن طولون ، وما تلاها من عصور[2]، فنجد أحاديث المصريين تتلون بالنكتة والفكاهة حتى في مواقف لا تلبث أن تشكل فيها النكتة عنصر المفاجأة في جوٍّ ممتلئ بالشدة أو الرّخاوة على حدٍّ سواء.

كما أن الإسلام لم ينه عن الضحك والمزاح المعقول المقبول الخالى من المجون والابتذال ، حيث كان النبى – صلى الله عليه وسلم– يضحك ويمزح كما كان الصحابة والسلف يمزحون ويضحكون ويتضاحكون ، وكثرت الكتابات والدراسات التي تدور حول هذا الموضوع، وأدرك الكتاب العرب أهمية الفكاهة والضحك ، لذا أكثروا من الحديث عنهما وبيان آثارهما ، ويعد الجاحظ أشهر هؤلاء الكتاب قاطبة .

وقد اختصت بعض هذه الدراسات بعصور معينة وأزمان محددة ، ولكن كلما تعرضت إحدى هذه الدراسات للفكاهة في العصر العثمانى ، نسبت هذه النزعة إلى ما أصاب تلك الفترة من ضعف سياسى واقتصادى وظلم اجتماعى ، غافلين ما كان في هذه الفترة من أدب وشعر ونثر ، وما كان فيها من قوة سياسية وعلمية أدبية واقتصادية . وفي السنوات الأخيرة أُسست العديد من أندية الضحك كالمسرح والتياترو في أماكن عدة من العالم ، وأصبح هناك الكثير من القنوات الفضائية ، وظهرت مواقع عدة على الإنترنت مخصصة للفكاهة والضحك ، وكذلك عدة مواقع لرسامي الكاريكاتير وممثلي الكوميديا[3].

---

[1] أستاذ زائر بكلية الإلهيات – جامعة بايبورت – تركيا البريد الالكتروني : (efethi@bayburt.edu.tr) .

([2]) انظر : في الشعر والفكاهة في مصر للدكتور شوقي ضيف : ص ٩

([3]) انظر : الفكاهة والضحك للدكتور شاكر عبد الحميد ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، عدد رقم ٢٨٩ ، شوال ١٤٢٣ هـ = يناير ٢٠٠٣ م : ص ٨

APSTRACT

There is no doubt that humor and laughter are both consider as subjects that attract the attention of writers and intellectuals through history, this is for the importance of humor and laughter in people's life as they express through humor and laughter their values, ideas and cultures.Humor was and still one of the most important characteristic of the Egyptians. As they have a passion to jokes that glow in their conversations in the most critical and embarrassed situations. You can find them laughing, mocking and make fun in adversity and prosperity alike.

Islam does not forbid reasonably accepted laughing and joking that are free of immorality and vulgarity. The Prophet (PBUH) was laughing and joking and the Companions and the Ancestors were laughing and joking too. There were many literature and studies that dealt with this subject. Some of these studies have specified in certain times and eras. When any of these studies have dealt with humor in the Ottoman era, it has attributed this trend to the political and economic weakness and social injustice in this era. However, these studies have forgotten literature, poetry, prose, jurisprudence and other sciences of this era. Also, they have forgotten political strength most often and strength in the scientific, literary and economic fields.

المضحك والفكاهة والمزاح في اللغة :

لاشك أن الفكاهة والضحك من الموضوعات التي جذبت اهتمام الكتاب والأدباء والمفكرين على مدى التاريخ ؛ وذلك لأهمية الفكاهة والضحك في حياة الشعوب التي تعبر بِطريق الفكاهة والضحك عما بها من قيم وأفكار وحضارات . وكانت الفكاهة –وما زالت– أهم ما يميز المصريين ، ففيهم شغف بالنكتة والنادرة التي تبرق في أحاديثهم في أحرج المواقف وأدقها ، وتجدهم وهم يضحكون ، ويسخرون ، ويتهكمون في وقت الشدة والرخاء على حد سواء .

والضحك في اللغة : يقال : ضَحِكَ: ضَحِكَ ضَحْكًا، وضَحِكًا : انفرجَتْ شَفَتَاهُ وبَدَتْ أَسنانُهُ من السُّرورِ. ومنه، وبه. سَخِرَ منه. وعَجِبَ وضاحكه : جعله يضحك ، والأُضْحُوكَةُ : كل ما يُضحَكُ منه ، والضَّحْكَةُ : من يكثِرُ الناسُ الضحك منه ، والضَّحُوك : الكثير الضحك ، والمُضْحِكَةُ : النادرة المستملحة تثير الضحك وللضحك عدة مراتب مهمة تبدأ بالتبسم ثم الإهلاس وهو إخفاء الضحك ، ثم الافتزار والانكلال وهما

الضحك الحسن ، ثم الكتكتة وهى أشد منهما ، ثم القهقهة ، ثم القرقرة ، ثم الكركرة ، ثم الاستغراب ، ثم الطخطخة وهى المبالغة فى الضحك ، ثم الإهزاق ، والزهزقة [٤].

والفكاهة في اللغة : من فَكِهَ : فكهًا وفُكاهةً :كان طيب النفس مزَّاحًا ، وفكَّهَ القومَ : أطرفهم بملح الكلام . والفَكِهُ : الطيب النفس الذى يُكثر من الدعابة . والفُكاهة : المزاح وما يُتَمتَّعُ به من طُرَفِ الكلام [٥].

والتمازح والمزاح والممازحة : يقال : فكههم بملح الكلام ، أى : أطرفهم، وداعبهم ومزح معهم .

والدعابة هى المزاح واللعب والمضاحكة، وقد تكون بالاستخفاف والاستهزاء والعبث[٦] بذكر النوادر المستملحة التي يضحك منها الناس وبها يسمرون .

* * * *

وقد عرفت الفكاهة والمزاح قديمًا – بشكل عام – على شكل نوادر يذكرها الكتَّابُ في مؤلفاتهم الأدبية والتاريخية ، على شكلين : الأول : الأقاصيص التي تروح عن النفس أو التي يقصد بها غرض خلقى نبيل .

والآخر : الأقاصيص الفكهة المضحكة القصيرة التي تسخر من حاكم أو معلم أو قاض أو بخيل[٧] ، وغير ذلك .

وكانت الرسائل الهزلية والمقامات أحدث أشكال الأدب الفكاهى منذ بدايات العصر العباسى ، كما كانت الرسائل الهزلية إحدى أدوات المضحك في النوادر والملح منذ بدايتها ، إذ أخذ الكتاب الساخرون في معارضة الرسائل الجادة بأخرى هزلية [٨]

وكان للعرب أسمار وأحاديث ونوادر يحكونها في لياليهم المقمرة ، ويتفكهون بها في جلساتهم ، وانتشرت هذه القصص مع دخول الخيال فيها مع أخبار الفتوحات الإسلامية والحروب ، وتنبع هذه القصص من الحياة الجاهلية الأولى وأيام العرب وما بها من مغامرات وحروب ، والحياة في عصر صدر الإسلام ، وما صاحبها من حروب وفتن وقصص حب ومغامرات ، وكذلك في العصر الأموي الذي كثرت فيه قصص الحب والمغامرات ، وكذلك الحياة في العصر العباسي وما صاحبها من ترجمة القصص والفلسفة وكتب الطب والمعرفة المختلفة عن بلاد

(٤) انظر : الفكاهة والضحك للدكتور شاكر عبد الحميد ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ص ١٤

(٥) انظر : الفكاهة والضحك للدكتور شاكر عبد الحميد ، ص ١٤

(٦) السخرية في الأدب العربي الحديث (عبد العزيز البشرى نموذجًا) للدكتورة سها عبد الستار السطوحي .

(٧) مصر والشام للدكتور شوقي ضيف : ص ٤٧٧

(٨) المضحك وتطوره في النثر العباسي حتى نهاية القرن الرابع ، جمال عبد الغفار إبراهيم بدوي ، ص ٦٥

الفرس والروم ، وكان قد اشتهر في تلك الفترة الكثير من القصص الشعبية مثل قصة عنترة بن شداد ، والأميرة ذات الهمة ، وقصة سيف بن ذى يزن ، وقصة حمزة البهلوان ، وقصص ألف ليلة وليلة ، وغيرها [٩]

شخصيات وكتَّاب في مصر العثمانية :

وكذلك كان للأدب العربى في زمن العثمانيين نصيبه من أدب النوادر والفكاهة ، فقد برع كثير من الشعراء والكتَّاب في هذا النوع من الأدب القائم على الأحداث الحقيقية ، وعُرف بعضهم بالهزل والفكاهة ، كالجنيد الدمشقي ، الذى عرف بهزلياته النثرية ، وقد استطاع المحبي في خلاصة الأثر رصدَ الكثير من هذه الهزليات خلال ترجمته لهذا الأديب البارع ، فيقول عنه :" كامل الأدوات ، حسن الآداب ، لطيف المطارحة ، حلو الحديث ، صاحب نكات ونوادر ورواية واسعة في الأخبار والأشعار والأحاديث" [١٠] .

ثم قال عنه أيضًا :"وعاشر الوزراء ، ونادم الكبراء ، وتردد إلى الأعيان ، وهام في الغيد الحسان ، حتى صار شيخ الغرام ، ونقيب الوجد والهيام ، فهو صغير كبير ، وكبير صغير، إذا خالط الكبار يكبر، وإذا خالط الصغار يصغر، محبوب قلوب الأنام ، له فيها التصرف التام، لا يراه أحد من الناس إلاَّ يود أن يكون له من الندماء والجلاس ، يحب التلاق ، ويكره الفراق ، لا يودع مسافرًا ولا يعود مريضًا، ولا يشيع جنازة إلاَّ نادرًا، وكانت أوقاته مستغرقة في النزهات" [١١].

ومن هؤلاء : إبراهيم بن محمد الدمشقي الصالحي الأكرمي ، وعبد الباقى بن أحمد بن محمد المعروف بابن السمان الدمشقي[١٢] . وكان فتح الله بن عبد الله ، المعروف بابن النحاس المتوفى سنة (١٠٥٢هـ = ١٦٤٢م) يتعاطى الكيف ، وله فيها نوادر[١٣]، وشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المتوفي سنة (١٠٦٩ هـ = ١٦٥٨م) ، ويوسف بن عمران الحلبي المتوفي سنة(١٠٧٤هـ = ١٦٦٣م)، والشيخ يوسف الشربينى ، صاحب كتاب " هز القحوف في شرح قصيد أبي شادوف "[١٤] وغيرهم كثير.

وكان المصريون يحبون الفكاهة والضحك من خلال فن الزجل الذي كان يبدعه شعراؤهم وكتابهم ، حتى إن الخيال الجمعى للشعب المصرى كان كثيرًا ما ينظم الأزجال ويخرجها فى صورة أغنية شعبية يرددها الأطفال

---

(٩) المصدر السابق ، ص ٥٧

(١٠) خلاصة الأثر للمحبي : ١ / ٤٩٠

(١١) المرجع السابق : ١ / ٤٩٠ – ٤٩١

(١٢) خلاصة الأثر للمحبي : ٢ /٢٧٢ – ٢٧٣

(١٣) المصدر السابق : ٣ / ٢٥٨ . ٢٥٩

(١٤) وقد طبع بمصر ببولاق سنة ١٢٧٤ ، ١٢٨٤ ، ١٣٠٨ ، والقاهرة ١٣٢٣ ، والإسكندرية ١٢٨٩

والرجال والشيوخ والنساء ، فيذكر أنه فى حوادث سنة (١١٣١ هـ = ١٧١٩م) خلع المماليك الوالى التركى عقب فتنة كبيرة ، سالت فيها الدماء وخربت بسببها الديار ، فهرب الوالى التركى ، فاجتمع الأولاد الصغار وهم يرقصون ويغنون بقولهم :

يـا باشـا يـا باشـا يـا عـين القملـه مـين قـال لـك تعمـل دى العملـه
يـا باشـا يـا باشـا يـا عـين الصـيره مـن قـال لـك دبـر دى التـدبيره ([١٥])

مجالات الفكاهة :

تعددت ألوان الفكاهة في الأدب العربى بشكل عام ، وكذلك كان الحال بالنسبة إلى مصر في العصر العثماني ، حيث كان منهم من يضحك ويتمازح حول الطعام أو الشراب ، والأخلاق والصفات الإنسانية المختلفة ، كالبخل أو التبذير والحُمْق والعي ، والجهل ، والفقر ، كما يضحكون من القُبح ، وغير ذلك .

فكان بعضهم يجعل من سوء الحال مادة للاستهزاء بالآخرين ، كما حدث في يوم من الأيام عندما اجتمع الجنيد مع الكريمى واستنشده بعض من الأبيات التي هجاه بها ، فلما أتم قراءتها نظر إليه بنظر المستهزىء به ، ولم يزده على أن قال له : أين الأم المشفقة التي تبكى عليك. ويعلق المحبي على ذلك بقوله :" وهذا كناية عن سوء الحال ، فإن الكريمى ورث من أبيه مالاً كثيرًا فأتلفه في فترة قصيرة ، وساء حاله بعد ذلك . فقال الكريمى : قابلنى بكلمة لو صرفت عمرى في هجوه ما وفيت بها"[١٦].

ومن المعروف أنه كان للطعام دوره الكبير في كثير من نوادر الأدب العربى ومضحكاته على مر العصور ، وكذلك لعب دورًا كبيرًا في مضحكات العصر العثمانى ، فقيل : حضر الجنيد في ضيافة عند أحد الأعيان بدمشق فخلط في الطعام على عادته ، فأنكر فعله بعض من كان في المجلس ، فلما تنبه لإنكاره أنشده قول الحريرى : (سامح أخاك إذا خلط)، فذيل له المنكر هذا المصراع بقوله : (في الرز والزرد فقط)[١٧].

وقيل حضر الأكرمي سماطًا وأمامه الجنيد فبالغ في النهمة ، وكان في المجلس بعض الأدباء فأنشد قول أبي محمد القزويني الضرير في رجل أكول :

([١٥]) الأدب المصرى فى العصر العثمانى لمحمد سيد كيلانى : ص ١٩٤
([١٦]) خلاصة الأثر للمحبي : ١ / ٤٩٤
([١٧]) المصدر السابق : ١ / ٤٩١ ، وقال المحبي : والرز لغة فى الأرز .

وصاحب لي بطنه كالهاويه كأن في أمعائه معاويه[١٨]

وقيل : " دعا رجل آخر إلى منزله وقال : لنأكل معك خبزًا وملحًا ، فظن الرجل أن ذلك كناية عن طعام لطيف لذيذ أعده صاحب المنزل ، فمضى معه ، فلم يزد على الخبز والملح . فبينا هما يأكلان إذ وقف بالباب سائل ، فنهره صاحب المنزل مِرارًا فلم ينزجر . فقال له : اذهب وإلا خرجت وكسرت رأسك . فقال المدعو : يا هذا انصرف فإنك لو عرفت من صدق وعيده ما عرفتُ من صدق وعده ما تعرضتَ له "[١٩] .

وقال :"وجد يهودى مسلمًا يأكل شواء في نهار رمضان ، فطلب أن يطعمه ، فقال له المسلم : يا هذا إن ذبيحتنا لا تحل على اليهود . فقال : أنا في اليهود مثلك في المسلمين "[٢٠].

وكذلك كان لبعض المشروبات التي ظهرت مؤخرًا في العصر العثمانى أثرها الواضح في مداعبات أدباء تلك المرحلة ، ومن هذه المشروبات : القهوة والدخان ، وغير ذلك ، ومن ذلك ماروى من أدب عبد الباقى بن أحمد بن محمد المعروف بابن السمان الدمشقى[٢١]، وكان فتح الله، المعروف بابن النحاس يتعاطى الكيف ، وله فيها نوادر[٢٢].

وقد تعتمد النادرة على اللحن والتصحيف كما نرى عند البوريني عندما: سئل عن الحب ، هل هو بالكسر أو بالضم ، فقال : هو بالكسر ، ويستحسن فيه الضم . وسئل عن الجفن أهو بالكسر أو بالفتح فقال : هو بالفتح ويستحسن فيه الكسر ، ولا تفتح فيه العين[٢٣].

و"سأل بعض المغفلين إنسانًا فاضلاً قال له : كيف تنسب إلى اللغة ؟ فقال : لُغوى . فقال له : أخطأت في ضم اللام ، إنما الصحيح ما جاءت في القرآن " إنك لَغَوِىٌّ مبين "[٢٤].

ومن المعروف أن الأمور الجنسية من المواد التي يُتَنَدَّرُ بها على مدى العصور ، وكذلك كانت في العصر العثماني ، حيث كان بعض الأدباء يستخدمونه في السخرية بغيرهم ، كما رأينا في سخرية عبد الحي طرز الريحان من أحدهم :

---

(١٨) خلاصة الأثر للمحبي : ١ / ٤٩١ . ٤٩٢ ، وذكر والد المحبي أن هذا البيت ذكر في يتيمة الثعالبي، واستجاد لفظه ووقوع الأمعاء إلى جنب معاوية لمزية ثالثة ، وهي كون الذى أنشد فيه من نسل معاوية .

(١٩) الكشكول لبهاء الدين العاملي : ٢ / ٢٩٥

(٢٠) المصدر السابق: ٢ / ٢٩٦

(٢١) خلاصة الأثر للمحبي : ٢ /٢٧٢ – ٢٧٣

(٢٢) المصدر السابق: ٣ / ٢٥٨ – ٢٥٩

(٢٣) المصدر السابق : ٢ / ٥٤

(٢٤) المصدر السابق : ١ / ٣٢٥

ألا قُلْ لمن أبدَى اعتِذَارًا وقد أبى زِيارتَنَا والرَّيْبُ في ذلك العُذْرمن
عليكَ أمانُ الله ما دُمْتَ عندنا القتلِ والتَّشْليحِ ثم لا أدْرِى[٢٥].

وكذلك كانت المعلومات المعكوسة أحد الأمور المتندر بها ، " قال بعض الأمراء لجنده : يا كلاب . فقال له أحدهم : لا تقل ذلك فإنك أميرنا "[٢٦] .

وقال المحبى : كان بدمشق خطيب يعرف بابن يونس[٢٧] ، أعرج أعوج ، كما قال الفاضل : قامت العصا بيدِه مكان رِجلِه ، وقلَّتْ أعوادُ الأغْصَانِ من أجلِه . فعرجَ إلى الأرضِ لا إلى السَّما ، وغُرِسَ العُودُ بكَفِّه ولكن ما أورقَ ولا نمَا ، وكان متَّهَمًا في الاعتقاد ، لا يزالُ يَرْمِيهِ سهْمُ الانتقاد . وكان من جهلهِ يتعرَّض للفُتْيَا ، ويُعِدُّ نفسَه أثْقَبَ القومِ رأيًا . فكتبَ يومًا على حكمٍ لقاضٍ : إنه باطل ، ومن حَلْى الحقيقة عاطِل . فأحضرَهُ القاضى في مجلسٍ غاصّ ، جمع بين عالِمٍ وخاصّ ، ثم أفسد ما قاله ، وما أهْمَله من التَّعْزير ولا أقالَه . فكتب بعض القوم فيه رسالة أوسع فيها المقال ، وقرَّظَ عليها علماءُ ذلك العصر ، ومنهم السيد محمد بن على القدسى فقال : " ..... تَصَدَّرَ للفُتْيا مع أنه أجْهَلُ من تُوما الحكيم ، وأنصفه حمارُ ابنُ حُجَيج ، فرَكِبَه في اللَّيلِ البهيم . قد فتحَ فاهُ بجَهْلِهِ ، وصدَّر فُتْيَاه بقوله : الحمد لله سبحانه ، والشّكْرُ له تعالى شَانَه. ولم يُمَيز في السَّجْعَتَيْنِ بين الفاعل والمفعول ، فكأنه اشتغلَ بباب البدل مع حبِّه ، فحصل له هذا الذُّهُول . لأنه رأى في كتب النُّحاةِ المهذَّبة ، أن الفاعل على ما أسند إليه فِعْلُه ، فظنَّه بهذه المرتبة . ولو سُئِلَ لأبْرَزَ من ضميرِه هذا الخاطر ، وحلف بأبى حمزة أن هذا هو الظاهر . .... وطالما عرج على درَجِ المِنْبَرِ ، وجعل أمْرَدَه أمامه ، ولولا التَّقِيَّةُ لجعله إمَامَه ، وما تلفَّتَ على المِنْبَر يمينًا وشمالاً ، إلا ليَقْتَنِص ظَبْيًا أو يَصيدُ غزالاً . وإذا ترنَّم وأظْهَرَ الخُشُوع ، واهتزَّ لغيرِ طَرَبٍ وأجرَى الدُّمُوع . فلأجلِ مَليح رآه عند المحراب ، ولم يستطِعْ أن يُشافِهَه بالخطاب. أو ليخْدَع بعضَ الحضَّار ، من الأتقياءِ الأخيار . ..... وما كفاه ارتقى هذه المكانة ، إلا بالرِّشْوةِ والتَّزوير والخيانة . وما كفاه أخْذُه التَّدْرِيس بالتَّدليس ، وخوضُه في الفتن التي فاق فيها على إبليس . حتى دخل على العُلَماءِ من غير باب ، وردَّ أقوالهم بغير صواب ...."[٢٨] .

---

(٢٥) خلاصة الأثر للمحبي : ١ / ٢٧١

(٢٦) الكشكول لبهاء الدين العاملي : ٢ / ٣٠٤

(٢٧) هو شرف الدين محمود بن يونس بن يوسف الحنفي ، كان خطيبًا طبيبًا ، تلقى الفقه على الشيخ عبد الوهاب خطيب الجامع الأموى ، وأخذ الطب عن أبيه ، والقراءات والتجويد عن الشهاب الطيبي ، وعن شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي ، وابن فهد ، وتولى خطابة الجامع الأموي ودرس في المدرسة الخاتونية والجقمقية ، وكانت وفاته سنة ١٠٠٨ هـ . انظر في ترجمته : خلاصة الأثر للمحبي : ٤ / ٣٢٤

(٢٨) الرسالة في نفحة الريحانة للمحبي : ١ / ٣٢٩ . ٣٣٥

وكتب محمد الطيلوني في هجاء القاضى عمر المغربي في رسالة طويلة ، نذكر بعضها للاستشهاد على أن النَّيْلَ من الآخرين بوصفهم بألفاظ نابية فاحشة ، قد أصبح من الأمور المضحكة بين الناس ، وبين الكتَّاب وبعض العلماء كذلك : " سلامي على من استعارَ الليلُ من سوادِ خِلْقَتِهِ ، واستفادَ طُوَيس الشُّؤمَ من صورته ، واكْتَسب النَّحْسان من نُحُوسِه ، وانكدَرت النجومُ من عُبُوسِه. لا زال مكتَسِبًا تفاصِيلَ الخِزْيِ والخِذْلان ، مُتَرَدِّيًا أرديةَ الذِّلَّة والصَّغار والهوان. ما نبحتْ كلابُ المغرب ، واستهانت عند من يهجو ويضرب . وبعد فإن سألتَ عنى أيها الخامل الذى لو قُدِر على حَمْل الذُكُور لكنتَ أوَّل حامل . فإنى بحمد الله من العزَّة والعافية في أعلى رُواق، ممدوحٌ بألسنة الوزراء فمن دونهم بالاتفاق . في عيشةٍ راضية مَرْضيَّة ونعمةٍ سابغةٍ سنيَّة. لا أرقَعُ قميصًا ، ولا أبيتُ خَميصًا[٢٩]، ولا أستعملُ خبيصًا[٣٠]. ولا رهنْتُ منذ عمرى جُوخَةً ولا صوفًا ، ولا تطَفَّلْتُ على خُوان أنتظر فيه لحمةً أو رغيفًا . وإني بخيرٍ كما لا تُحبون ، وأرجو من الله ما ترجون . وأسأل الله تعالى أن لا تكونوا كذلك ، وأن يوقعك في أضيقِ المسالك والمهالك . ومما أقْرَعُ به سمْعَك أعاره الله الصَّمم ، وألَمَّ بعينيك وفيك العمى والبَكَم . أني كنتُ أضربتُ عن هجوكَ صفحًا ، وطويتُ على إشهار مثالِبك كشحًا . ورميتُكَ ورائى ظِهريًّا ، وجعلتك نسيًا منسيًّا ، وإن كنت جئتَ شيئًا فريًّا . وقد سمعت أنه بلغ بك من الحسد والجهالة ، أن لفَّقْتَ من هذيانك وسرقاتك رسالة ، وتعرضت فيها لذكر من لستَ له على بال ..... "[٣١].

وروى " طوَّل ثقيل عند رجل ، فلما أمسى وأظلم البيت لم يأته بسراج ، فقال الرجل : أين السراج؟ فقال صاحب البيت : إن الله تعالى يقول :"وإذا أظلم عليهم قاموا" فقام وخرج"[٣٢] .

وكذلك فعل شهاب الدين الخفاجي ، فسار على المنهج نفسه وبالغ في الفحش في القول والهجاء عندما هجا أحد معاصريه بقصيدة طويلة أوردها المحبي في نفحته [٣٣].

ولما كان من أشهر العيوب التي اتخذها الشعراء وسيلة للهجاء في الشعر العربى : الجهل، والحمق ، ونفي الفهم، والنفاق والرياء ، والكذب، والبذاءة، والخمول واللؤم ، والبخل ، والخيانة ، والعيوب الخلقية كاللثغة وبشاعة

([٢٩]) الخميص : ضامر البطن من الجوع .

([٣٠]) الخبيص : طعام يصنع من التمر والسمن .

([٣١]) نفحة الريحانة للمحبي : ٤ / ٦٠٥ . ٦٠٩

([٣٢]) المصدر السابق : ٢ / ٣٠٨

([٣٣]) نفحة الريحانة للمحبي : ٤ / ٦١٢ – ٦١٣ ، وفي كتاب مصر والشام للدكتور شوقي ضيف البيت الرابع ، ومن البيت التاسع إلى الحادي عشر ، ص ٣٠٥

الصوت، والعور والعمى والعرج والبرص، فقد كانت هذه العيوب من وسائل السخرية والفكاهة لدى الشعراء العرب في العصر العثمانى، فيهجو إبراهيم بن محمد الأكرمي الجنيد الدمشقي ويرميه بالزنا والدب [٣٤].

وكان قبح الصوت من وسائل السخرية الشائعة منذ العصور القديمة ، فها هو ابن الغزال يهجو والد إسماعيل الجرشي الذى كان مؤذنًا ويسخر منه يقول :

إنَّ الجَمَـــــالَ الجُرَشِـــــى مِثْـــــلُ المغَـــــنِّى القُرَشِـــــى
يَـــــوَدُّ مَـــــنْ يسْـــــمَعُهُ لَـــــوْ ابْتُلِـــــى بِـــــالطَّرَشِ [٣٥]

وكان الشره إلى الطعام والإقبال عليه ، والطمع من الأمور التي يسخر منها الشعراء ، فمن ذلك ما قاله إبراهيم بن محمد الأكرمي في هجاء الجنيد الدمشقي ، يصف ما كان فيه من شره للطعام ، ويخرج منها لفظ الجنيد بطريق التعمية [٣٦]

كما كان الرمي بالبخل بما في اليد من أشهر وسائل السخرية والهجاء على مر العصور، فها هو الدونشري يمر يومًا على صاحبه درويش المحلي وفي يده دينار فسقط منه فقال :

يَـــا فَائِقًـــا بِـــالجودِ بَـــينَ الـــوَرَى ومشَـــــبِّهًا للمـــــزْنِ في وَكْفِـــــهِ
مُـــذْ سَـــقَطَ الـــدِّينَارُ مِـــنْ كَفِّكُـــمْ وَعَـــادَ مَثْـــلَ البَـــرْقِ في خَطْفِـــهِ
كَـــذَّبْتُ مَـــنْ قَـــدْ قَـــالَ في حَقِّكُـــمْ لا يَسْـــقُطُ الخـــرْدَلُ مِـــنْ كَفِّـــهِ [٣٧]

ويرى يوسف بن عمران الحلبي المتوفى سنة (١٠٧٤هـ =١٦٦٣م) أحد البخلاء فيصفه بأنه شحيح ما ترجى له سلامة من النار ، فإنه سوف يظل خالدًا فيها ، وإن مائدته لتخلو دائمًا من أى طعام حتى من الخبز ، ولو ألقى رغيفًا على مائدته لاستترت الشمس حتى يوم القيامة[٣٨].

([٣٤]) خلاصة الأثر للمحبي : ١ / ٤٩١

([٣٥]) والمغني القرشي معروف ، يضرب به المثل في رداءة الصوت . انظر : خلاصة الأثر للمحبي : ١ / ٤٨ ، ونفحة الريحانة للمحبي : ١ / ٣٩٧ ، وهي لابن أبي الأصبع .

([٣٦]) خلاصة الأثر للمحبي : ١ / ٤٩١

([٣٧]) خلاصة الأثر للمحبي : ٣ / ٥٦

([٣٨]) مصر والشام للدكتور شوقي ضيف : ص ٦٠٧ . ٧٠٧

الفنون الأدبية وعلاقتها بالفكاهة

أولاً : الأدب الشعبي والعامية :

وكانت قد نشأت في البلاد العربية كثير من الفنون الشعرية العامية كالزجل ، والمواليا ، والكان وكان والقوما[٣٩] ، والتي زاد انتشارها بداية من العصر المملوكى ؛ بسبب اهتمام سلاطين المماليك به وتشجيعهم للشعراء على هذا اللون الأدبى . وامتد هذا الاهتمام إلى أدباء وشعراء العصر العثمانى الذين اهتموا كثيرًا بالأدب الشعبى والعامى ، وزاد اهتمامهم بفنون جديدة كفن خيال الظل الذى نشأ في العصر المملوكى ، والألغاز والأحاجي (التي تطورت تطورًا كبيرًا في العصر العثماني) ، والأمثال الشعبية .

ومما زاد من الاهتمام بالأدب الشعبى في مصر زمن العثمانيين ذلك الانتشار الواسع والواضح للمقاهى في مصر وبلاد الشام ، بداية من القرن العاشر الهجري ، وأخذ أصحاب المقاهي يتنافسون في اجتذاب الناس ، فكان منهم من يستأجر القصَّاص ، ليقصّوا الحكايات المشوقة والقصص العجيبة ، وسير الأبطال ، فظهرت في تلك الفترة سيرة الظاهر بيبرس ، وسيرة الأميرة ذات الهمة ، وقصص صغير مثل : الدرة المكللة في فتح مكة المكرمة ، وغزوة الإمام على مع اللعين الهضام بن الجحاف" ، و"فتوح اليمن المعروف برأس الغول" ، وانتشرت قصص ألف ليلة وليلة ، وقصص عنترة بن شداد ، وسيف بن ذى يزن ، وتخلل ذلك الكثير من الأشعار باللغة العامية ، التي كان ينشدها القصاص والمنشدون مستخدمين آلات الطرب الربابة والعود؛ وزاد هذا التنافس بين أصحاب المقاهي من اندفاع المغنين إلى الإجادة والإتقان ليحوز كل منهم قصب السبق ؛ فتنهال عليه الأرباح الكبيرة ، واتصل المغنون بالشعراء يريدون نظم المقطوعات الغنائية ، مما زاد من انتشار الأزجال والمقطوعات الشعرية الغنائية والموشحات[٤٠].

واشتهر كثير من أدباء العصر العثماني بالاتجاه نحو الأدب العامي والشعبي في مصر وبلاد الشام ، ومن أشهر هؤلاء ابن إياس صاحب بدائع الزهور ، المتوفى سنة (٩٣٠هـ = ١٥٢٣م) بشعره العامي له ، ولمعاصريه كبدر الدين الزيتوني ، المتوفى سنة (٩٢٤هـ= ١٥١٨م) ، أحد كبار نواب الشافعية[٤١] . ومنهم أيضًا : فتح الله بن النحاس الحلبي ، المتوفى سنة (١٠٥٢ هـ =١٦٤٢م) ، والشيخ أيوب الخلوتي ، المتوفى سنة (١٠٧١ هـ = ١٦٦٠م) ، ومصطفى البابي الحلبي ، المتوفى سنة (١٠٩١ هـ = ١٦٨٠م) ، وإبراهيم بن عبد الرحمن السؤالاتي

(٣٩) مصر والشام للدكتور شوقي ضيف : ص ٣٨٦

(٤٠) الأدب المصري في العصر العثماني لمحمد سيد كيلاني : ص ٢٢ ـ ٢٣ ، ٢٠٦

(٤١) الأدب المصري في العصر العثماني لمحمد سيد كيلاني : ص ١٩١

، المتوفى سنة (١٠٩٥هـ = ١٦٨٣م)، ومنهم أيضًا الشيخ عبد الغنى النابلسى الذى يعد من أغزر شعراء العصر العثماني نظمًا للموشحات والمواليا والكان وكان والدوبيتات .

ولعل أشهر من كتب في الفكاهة والسخرية بالعامية في الأدب العربى في العصر العثماني هو الشيخ يوسف الشربيني ، وقصيدة أبي شادوف التي شرحها في كتابه الشهير بـ" هز القحوف في شرح قصيد أبي شادوف" ، وبدأ المؤلف كتابه بكثير من الحكايات الهزلية التي تتحدث عن أخلاق أهل الريف ، رجالاً ونساءً ، وعن العادات السائدة بينهم ، والجهل المطبق عليهم ، وسوء أخلاق أهل الريف . وفي هذه الكتاب كثير من ذكر العورات ، والعبارات المكشوفة ، والألفاظ القبيحة، وقد شنع الشارح فيه على الفلاحين ، ورميهم بكل موبقة ، ووصفهم بكثير من العيوب ، ويظهر من هذا أن الشيخ يوسف الشربينى قد وضع أهل الريف في إطار يُرضِى أصحاب السلطان، ويشبع رغبتهم بتصوير أهل الريف في صورة سيئة تأبى العين النظر إليها ، ولكن في الوقت ذاته فإن التفصيلات الداخلية لهذه الصورة تحوى تصويرًا كاملاً للظلم الذى حل بهذه الطبقة من الفلاحين ، والإهمال الذى أصابها نتيجة للرقابة التي تحكم العلاقة بين أفراد هذه الطبقة من جهة ، وأجهزة الإدارة من جهة أخرى [٤٢]، ومن صوره الشنيعة التي صور فيها الفلاح المصرى قوله :" وقبل الخوض في بحر هذا الكلام نذكر ما وقع لعوام بعض أهل الريف، ووصف طبعهم الكثيف، وأخلاقهم الرذيلة، وذاتهم الهبيلة ، وأسمائهم المقلبة ، وشخوصهم المشقلبة ، وقمصانهم المشرمطة ، وأشعارهم الملخبطة ، ونسائهم المزعجات ، وما لهم من الدواهى والبليات ، فنقول : أما سوء أخلاقهم، وقلة لطافتهم فمن كثرة معاشرتهم للبهائم والأبقار، وملازمتهم لشيل الطين والعفار ، وعدم اكتراثهم بأهل اللطافة ، وامتزاجهم بأهل الكثافة "[٤٣] كأنهم خلقوا من طينة البهائم .. وتمتنع عن بلادهم الفوائد ، وكل هذا من قلة عقلهم ، وكثرة جهلهم ، وسوء أخلاقهم ، وأيضًا عندهم قلة الوفا، وعدم الأنس والصفا ، لا يؤدون القرض، ولا يعرفون السنة من الفرض، إن عاملتهم أكلوك ، وإن نصحتهم أبغضوك، وإن أقمت لهم الشرع رفضوك، وإن ألنت لهم الجانب مقتوك ، العالم عندهم حقير ، والظالم عندهم كبير ، أمورهم معاند ، وليس عندهم فوائد ، عندهم قابض المال أعز من العم والخال ، سود الوجوه ، إذا رأوا معروفًا أنكروه[٤٤] . ويصور أخلاق المتظاهرين بالدروشة ، وما تسببوا فيه من انحطاط الرجال والنساء ، وبعد عن الدين

([٤٢]) المرجع السابق : ص ٢٠٠ ، تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان : ٨ / ٣٠ ، مصر والشام لشوقي ضيف : ص ٤٨٢ ، فصول من تاريخ مصر في العصر العثماني : ص ٦١

([٤٣]) الأدب المصري في العصر العثماني للدكتور محمد سيد كيلاني : ص ٢٠٠

([٤٤]) انظر : هز القحوف في شرح قصيد أبى شادوف للشيخ يوسف بن محمد بن محمد الشربيني ، المطبعة الأميرية ببولاق ، الطبعة الثانية ، ١٣٠٨ هـ : ص ٦

الحنيف وتهكم بالشعراء[٤٥] ثم قال : هذا الكلام من بحر الهلفطة ، والمعانى المشرمطة ، وتفاعيله متلخبطة متخلبطة، متخايطة [٤٦].

ويتناول كل ما يتصل بالفلاحين مثل أسماء رجالهم ونسائهم وأولادهم وألقابهم ، وأشكالهم وأطعمتهم ومشروباتهم وحياتهم وزراعاتهم ومجالسهم وتعلمهم بأسلوب ساخر لا يقره عقل ولا دين ، ولا يقبل به إنسان في القديم ولا في الحديث ، ولا أدرى ماذا أراد الشيخ الشربينى من هذا الكتاب غير السخرية والحط من شأن الفلاحين والعمال الفقراء في مصر المحروسة ، وأظنه كان قد كتبه بأمر من أحد الولاة أو كبار التجار الذين أحبوا النيل من فقراء مصر وفلاحيها .

ثم يختم الشيخ الشربيني مقدمته لشرح قصيدة أبي شادوف بأرجوزة هجا فيها الفلاحين وسفه عقولهم وسيطرة الدراويش ورجال الطرق الصوفية على عقولهم وحياتهم[٤٧] .

ثانيًا : فن خيال الظل :

و"خيال الظل واحد من فروع ثلاثة من فن الدمى ، أما الفرعان الآخران فهما فن العرائس ، وفيه تتحرك الدمى بخيوط خارجية ، وفن القره قوز، وفيه يلبس اللاعب في يده قفازًا ، نصفه الأعلى دمية ويحركها من الداخل"[٤٨]. وبالرغم من أن خيال الظل من الفنون الشعبية التي لا يستطيع الباحث أن يحدد نشأتها ومراحل تطورها على التحقيق ؛ لأنها ، بحكم تلقائيتها ومرونتها وصدورها عن الوجدان الجمعي ، تساير امتداد الشعب الذى يعبر بها عن ذاتيته العامة ، وعن مختلف مواقفه ، فقد ذكرت كثير من المصادر أن الأدب العربى قد عرف فن خيال الظل قبل فترة الحكم العثماني لمصر وبلاد الشام، وكان صيته قد ذاع منذ العصر الفاطمى[٤٩] والمملوكى ، وكثر ذكره في مؤلفات كثير من كبار الكتاب كابن إياس والمقريزى وغيرهما ، وكان المغول قد حملوه معهم حينما هاجموا الشعوب الإسلامية ، فانتشر في العراق وتركيا وسوريا ومصر وشمال أفريقيا ، ثم أوربا[٥٠]، وكان محمد بن

---

(٤٥) فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن : ص ٦٤

(٤٦) الأدب المصري في العصر العثماني للدكتور محمد سيد كيلاني : ص ٢٠١

(٤٧) فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن : ص ٦٥

(٤٨) الفنون الشعبية لرشدي صالح : ص ٦٢ ، خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس : ص ١٠

(٤٩) وكانت أول إشارة يعتد بها فى ظهور خيال الظل في مصر زمن الأيوبيين ، تلك الرواية التي قرنت خيال الظل بصلاح الدين الأيوبى ، ومن ثم ازدهر هذا الفن في مصر زمن الدولة الفاطمية ، وكان في تلك المرحلة يرتبط بالنصائح والحكم والتعليم . خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس : ص ٩ ، ١٨ . ١٩

(٥٠) الفنون الشعبية لرشدي صالح : ص ٦٠ ، وقد اختلف العلماء حول الموطن الأصلي لخيال الظل ، فقال كثيرون الهند هي موطنه الأصلي : خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس : ص ١٣. ١٤، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال للدكتور إبراهيم حمادة : ص ٣٤ . ٣٥ ، ٣٨– ٤٢

دانيال بن يوسف الخزاعى الموصلى ، المعروف بابن دانيال [٥١] ، المتوفى سنة (٧١٠ هـ =١٣١٠م) ، كان قد دخل إلى مصر سنة (٦٥٦هـ = ١٢٥٨م) ، عند اجتياح المغول للعراق . من كبار الكتاب والشعراء الذين كتبوا في هذا الفن ونشروه في مصر، وله كثير من الأشعار الخليعة والماجنة، وكثير من التمثيليات الماجنة الساخرة التي تعتمد على فن خيال الظل.

واهتم العثمانيون بهذا الفن حتى أصبح يذكر عندهم بالقراقوز (الكراكوز) وهي لفظة تركية مغولية معناها "ذو العيون السوداء" وهى تؤدى معنى خيال الظل ، وهي عبارة عن تمثيليات أبطالها دمى تلعب من خلف ستارة ، يحركها لاعب أو أكثر ، وتحكي كل تمثيلية قصة من الأقاصيص الشعبية[٥٢].

وبالرغم مما كان يواجهه أصحاب هذا الفن من اضطهاد كثير من سلاطين المماليك حتى إن السلطان جقمق أمر سنة (٨٥٥هـ = ١٤٥٢م) بإبطال اللعب بخيال الظل ، وإحراق شخوصه ، إلا أن هذا الفن ذاع وانتشر وأصبح له رواده المحبون له ، حتى سيطرة الدولة العلية العثمانية على مصر وبلاد الشام ، فزاد انتشار هذا الفن في طول البلاد وعرضها نظرًا لحب السلاطين العثمانيين لهذا الفن وتشجيعهم له في طول البلاد وعرضها ، فها هو السلطان سليم الأول قد شجع هذا الفن عندما أنعم على المخايل الذى عرض عليه فن خيال الظل وروى قصة السلطان المملوكي طومان باي بعد شنقه[٥٣] .

وكان قد التبس الأمر على كثير من الباحثين عند التعرض لخيال الظل التركى ، وخلطوا بينه وبين القراقوز أو الأراجوز ، بينما هما فنان منفصلان تاريخيًا وشكليًا . وكان قد ازداد حب العرب والعثمانيين لخيال الظل مع مرور الأيام ، فيروى أن السلطان مراد الثالث (١٠٠٢هـ = ١٥٩٤م) أقام حفلاً كبيرًا يوم ختان ولده ، ودعا إليه كبار رجال الدولة ووجهاءها وأعيانها ؛ ليشاهدوا أحد المخايلين المهرة وهو يعرض تمثيليات خيال الظل[٥٤] . وفي سنة (١٠١٢هـ = ١٦١٢م) ، تكونت في القاهرة فرقة من المخايلين برياسة داود المناوي العطار ، وسافرت هذه الفرقة إلى إسطانبول لإحياء حفلات زواج الوزير التركي محمد باشا السابع بابنة السلطان أحمد الأول ، وبعد اللعب أبدى السلطان أحمد إعجابه لداود المناوي العطار بلعبه وأعماله ، وأجزل له العطاء[٥٥] .

([٥١]) خيال الظل لعبد الحميد يونس : ص ٥١ ، ٥٩ ، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال لإبراهيم حمادة : ص ٩٢ . ١٠٠

([٥٢]) المعجم المفصل في الأدب للدكتور محمد التونجي : ص ٧٠٣ ، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال للدكتور إبراهيم حمادة : ص ٦٢

([٥٣]) خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس : ص ٢٢ . ٢٤ ، خيال الظل لإبراهيم حمادة : ص ٦٣ . ٦٤

([٥٤]) خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال لإبراهيم حمادة : ص ٦٧

([٥٥]) خيال الظل لعبد الحميد يونس : ص ٨٤

وكان السلطان مراد الرابع بن السلطان أحمد (١٠٥٠هـ = ١٦٤٠م) يؤثر مخايلاً بعطفه ويستعرض رواياته مرتين كل أسبوع ، وكان هذا المخايل واسع الثقافة والاطلاع ، متقنًا اللغة الفارسية والعربية ، ومختلف الفنون الموسيقية" أما السلطان إبراهيم بن أحمد فكان فاسقًا عربيدًا عبدًا للذاته الحسية ومغرمًا بمعاشرة أصحاب اللهو والتسلية حتى ليقال إنه أعجب بعروض مخايل ماهر فعينه في منصب رفيع يتنافس عليه كبار رجالات السلطنة ، وقد ألمح بعض السياح الأجانب في أثناء جولاتهم بالبلاد التركية في القرن السابع عشر إلى أن السلاطين والأمراء كانوا يتمسكون بلعبة خيال الظل في أحفالهم الخاصة "[٥٦] .

وكانت تمثيليات خيال الظل تمتاز بكثرة الغزل والشكوى من فراق الحبيب، ونداء الليل، والوعظ والإرشاد ومكارم الأخلاق ، وكثرة الهزل والخلاعة والمجون والكلام الفاحش[٥٧] ، وخاصة في تمثيليات ابن دانيال التي كانت تعتمد على المجون والفحش والانحراف ، واتسمت بالفكاهة والنقد ، وارتبطت في الوقت نفسه بصور الحياة المصرية في مواسمها وأماكن تجمعها ، وعكست بعضها مشاهد من تاريخها[٥٨] .

أما في العصر العثماني فقد كانت أكبر مجموعة تحدثت عن فن خيال الظل في العصر العثماني وتمثيلياته مجموعة في كتاب عنوانه "الروض الوضاح في نهاية الأفراح المسمى باجتماع الشمل في فن خيال الظل" ، لمؤلف مجهول ، وذلك بالرغم من أن الكتاب من أوله إلى نهايته يتحدث عن أزجال فن خيال الظل وتمثيلياته للشيخ سعود ، والشيخ على النحلة ، والشيخ داود المناوى العطار. ومن أسلوبها يظهر مدى اختلاف أسلوب فن خيال الظل في العصر العثماني عنه في العصر المملوكى ، وخاصة في فن خيال الظل عند ابن دانيال ، فقد انتقل شعراء العصر العثمانى بفن خيال الظل من المجون والفحش في القول إلى التخفف من هذا الأسلوب الفاحش ، وتبدأ هذه التمثيليات بمدح رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر الخلفاء الراشدين ، رضى الله عنهم أجمعين ، والصحابة ، وتصوير مشاكل الناس واستغاثتهم بالأنبياء والمرسلين والأولياء[٥٩]. ويدور الكتاب حول تمثيلية تسمى: "فلاح في بطن تمساح" وتسمى أيضًا تمثيلية "لعبة التمساح" ، وهي تصور حالة الفلاح المصرى في أواخر القرن الحادي عشر الهجري ، السابع عشر الميلادي ، وهي تنسب إلى الشيخ سعود ، والشيخ علي النحلة ، وداود المناوي العطار ، كما ينسب إلى هؤلاء الأعلام تمثيلية أخرى من تمثيليات خيال الظل ، هي تمثيلية "حرب

([٥٦]) خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال للدكتور إبراهيم حمادة : ص ٦٧ . ٦٨

([٥٧]) الأدب المصرى في العصر العثمانى لمحمد سيد كيلاني : ص ١٩٩

([٥٨]) خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس : ص ٨٢

([٥٩]) الأدب المصري في العصر العثماني لمحمد سيد كيلاني : ص ١٩٩

العجم"، أو "لعبة المنار"[٦٠]، وهي تمثيلية تحمل تطورًا وشكلاً مغايرًا لتمثيليات ابن دانيال الشهيرة ؛ لأن هذه التمثيلية تعكس موقف العرب والمسلمين من الحروب الصليبية ، وأنها تؤثر الجد على الهزل عند ابن دانيال ، وتوحد الصف المسلم والعربى أمام الصليبيين ، وتعرض لفضيلة الجهاد ، وتتغنى بالنصر ، أما تمثيليات ابن دانيال فتعرض لمناقرة الديكة ، وتناطح الخراف ، ومصارعة الثيران ، وتستعرض الانحراف الأخلاقى ، وبها كثير من الألفاظ السوقية النابية عن الأخلاق السوية ، كما لا تعتمد مسرحية لعبة الفنار على إظهار البراعة في الفكاهة ، وإثارة الضحك بقدر ما تعتمد على تصوير البحر والمنار والقلعة والسفن ، والحروب على الصليبيين والانتصار عليهم .

ثالثًا : الأمثال :

وكذلك ورد كثير من الأمثال العامية الشعبية في العصر العثمانى خلال كتاب نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة للمحبى ، وكان المحبى قد ذكر هذه الأمثال العامية استشهادًا بها على رأى أهل الأدب بأن نجاح الأمور وسعادتها ونحوستها وخيبتها بأوائلها ، مع عدم إقراره بصحة هذا الرأى لا علما ولا شرعًا : ومن هذه الأمثال قولهم : " الديك الفصيح من البيضة يصيح ". وقولهم: " لو أراد يسعدنى أيش كان يقعدنى ". وقولهم :"ليلة العيد من العصر ما تخفى". وقولهم: " الليلة المضية تبان من عشية". وقولهم :" اليوم المبارك من أوله يبين"[٦١].

وقولهم :" كالدمل يطلع في أضيق المواضع " ، وهو مثل يضرب لمن يجىء في غير محله، فأخذه بدر الدين بن الأزهر الشاعر وقال :

شَـــكَا إلَىَّ مَـــنْ أحِـــبُّ دمـــلاً فِي رِدْفِـــهِ وقـــالَ قـــول جـــاذِع
يطلـــع فِـــى كُـــلِّ مكـــانٍ ضَـــيِّقٍ فقلـــتُ ذَا فـــى أوْسَـــعِ المواضِـــعِ

وضمن هذا المثل في معنى آخر فقال :

(٦٠) أرجع بعض العلماء تاريخ تأليف هذه التمثيلية إلى القرنين السادس والسابع الهجريين ، الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، ولكن نظرًا لبدء التمثيلية باسم الشيخ سعود يرجح البعض أنه هو الذى نظمها أو ألفها مع زميليه . انظر : خيال الظل لعبد الحميد يونس : ص ٩٠ . ٩١ ، خيال الظل لإبراهيم حمادة : ص ٤٦

(٦١) نفحة الريحانة للمحبي : ٢/ ٢٠٣ ، ولعل الحركة الإيقاعية التي تنتج عن الوزن والقافية لهذه الأمثال ، هو أهم ما يميزها عن غيرها ، ذلك الوزن الذى يصنع الشكل اللغوي المقفل ، كما فى قولهم أيضًا : " قصصي طيرك، لا يلوف بغيرك " وقولهم :" العبد فى التفكير ، والرب فى التدبير "أشكال التعبير في الأدب الشعبي للدكتورة نبيلة إبراهيم : ١٦٩ .

لقــدْ عثَــرَتْ بِجُــنَحِ اللَّيْــلِ رِجْــلِ علَــى شَــخْصٍ ولَمْ يَــكُ فِي حِسَــابِي
فَقَــالَ مُجَاوِبًــا لِــي أنــتَ أعمَــى ؟!! فقلْــتُ : نَعَــمْ ودَوَّاسِ الكــلابِ[٦٢]

رابعًا : الألغاز :

وترتبط الألغاز بالفكاهة والضحك ؛ لأن الألغاز باب من أبواب الضحك والسمر والفكاهة ؛ فعندما تسمر جماعة ، وتتبادل الألغاز والفوازير ، ومن خلالها يتم الكشف عن غباء الإنسان العادى بقصد خلق جو من السخرية والمرح[٦٣]، والدعابة التي تحملها الألغاز دعابة تحتاج إلى إعمال الفكر وإجهاده في صياغتها صياغة دقيقة فنية تتوسط بين الوضوح والإبهام والتصريح والتلميح ، ثم في حل رموزها وأسرارها بالاعتماد على الذكاء والذاكرة وقوة الثقافة "[٦٤] .

وكان لانتشار الألغاز في أوساط المجتمع المختلفة أثره الواضح في اللغة التي تروى بها هذه الألغاز ، فإذا كان اللغز يوجه من شخص لآخر على سبيل الامتحان ، ليرى ما إذا كان هذا الشخص يفهم لغة هذه الجماعة ، فإن لغة هذه الألغاز قد تعدَّدت بتعدد هذه الجماعات ؛ لأن كل جماعة تستخدم لغة خاصة بها ، فجماعة الصيادين مثلاً لهم لغتهم الخاصة بهم ، وكذلك جماعة اللصوص ، وجماعة الحكماء لها لغتها التي تتسم بالغرابة ، وإلَّا كانت ملكًا مشاعًا للجميع، وعلى هذا فإن اللغز يستخدم اللغة الغريبة في مقابل استخدام الإنسان العادى اللغة العادية[٦٥] . وعلى هذا يمكن تحديد أنواع الألغاز بالألغاز اللفظية واللغوية، والألغاز الفقهية ، والألغاز النحوية ، والألغاز الفرضية ، والألغاز الحسابية (التاريخ الكنائي ، والألغاز الأدبية ، والألغاز الصوفية التي يمتحن بها الشيخ مريديه [٦٦]، ومنها ما يسأل عن شيء أو كلمة[٦٧]، وقد يلغز في اسم ويأتى اللغز بما يطابق صورة أحرفه في الرسم من الأشياء ، وهو نادر جدًّا .

([٦٢]) ريحانة الألبا للخفاجي : ص: ٢٦٦ . ٢٦٧ ، وتتميز هذه الأمثال بأخذها لشكل الحكاية ، كما في قولهم ضربوا الأعور على عينه ، قال : خسرانه خسرانه . أشكال التعبير في الأدب الشعبي لنبيلة إبراهيم : ١٧٠

([٦٣]) مثل فزورة الكتابة " قد السمسمة وتجيب الخيل ملجمة" ، ولغز البيض " طبق رخام عليه زعفران حلف ما يتاكل إلا بالكلام" ، أو لغز الترمسة " جيت آكلها قلعت قميصها . انظر : أشكال التعبير لنبيلة إبراهيم، ص ١٨٩

([٦٤]) الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء : للدكتور أحمد فوزي الهيب : ص ٣٥٣

([٦٥]) انظر : أشكال التعبير للدكتورة نبيلة إبراهيم ، ص ١٩٦ ، وذكر البعض أن من هناك ألغازًا قصدتها العرب، وألغازًا قصدها أئمة اللغة ، وأبياتًا لم تقصد العرب الإلغاز بها ، وإنما قالتها فصادف أن تكون ألغازًا ، وهى نوعان: فإنها تارة يقع الإلغاز بها من حيث معانيها ، وسموا هذا النوع أبيات المعاني لأنها تحتاج إلى أن يُسْأل عن معانيها ، ولا تُفهم من أول وهلة . انظر : تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي : ٣ / ٤٠٣، ٤٠٤

([٦٦]) من فنون الأدب الشعبي فى التراث العربي للدكتور محمد رجب النجار : ١٧٧/١ . ١٧٨

([٦٧]) الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء : للدكتور أحمد فوزي الهيب : ص ٣٥٤

وأما الألغاز الأدبية فتنقسم إلى قسمين ، الأول : ألغاز الخاصة التي أبدعها الشعراء والأدباء المعروفون ، وحظيت بعناية الكتاب فدونوها في كتب الشعر والأدب والبلاغة ، وقام بدراستها علماء البلاغة والبيان والبديع .أما الآخر فهو الألغاز الشعبية التي قالها عامة الناس ، وذاع انتشارها في البيئات العربية بين الخاصة والعامة ، ولا يفترق أحدهما عن الآخر إلا في السمات اللغوية والفنية ، وفي مستويات المتلقى أيضًا. وأصبح لها تأثيرها الكبير في الأوساط الشعبية ، إلى درجة أنها لم تعد تروى مفردة فحسب، وإنما داخل الحكاية الشعبية والخرافية ، وكان لها دورها الكبير في تركيب تلك الحكايات، وفي هذه الحالة لا يروى اللغز بوصفه سؤالاً محيرًا يتطلب إجابة صائبة يعرفها السائل من قبل ، وإنما يكون كذلك في صورة مسألة محيرة تتطلب التفسير[٦٨].

ولما كانت الألغاز تعد من أخفى الإشارات ؛ لأننا نرى فيها للكلام ظاهرًا غير ممكن فإذا أعملنا الفكر وأمعنا النظر وجدنا له باطنًا ممكنًا ، كانت مجالاً يتبارى فيها الأدباء ويتراسلون بها ، وانتشرت وذاعت وصارت فنًّا لم يخل منه ديوان من دواوين الأدب العربي [٦٩]، وبعد أن كانت الألغاز تلقى مباشرة من السائل إلى المسئول ، دخلت في العصور المتأخرة ، وبخاصة في العصرين المملوكى ، والعصر العثماني ، إلى فن المراسلات الإخوانية ، مع احتفاظها بجانب الفكاهة والدعابة والبراعة في صياغتها ونظمها ، فها هو محمد بن يوسف الكريمي يكتب إلى أخيه أكمل الدين ملغزًا في أكتع :

يـــا أَكْمَـــلاً يَسْـــتَكْمِلُ الظَّرْفَـــا ... يَـــا فاضـــلاً والفَضْـــلُ لا يَخْفَـــى

ويـــا شـــقيقى مـــن فَخَـــارِى بـــه ... ومـــن غـــدا لى في الـــورى طَرْفَـــا

أَكْمـــلُ منـــه إن أصِـــفْهُ فَلِـــى ... أَرْجَـــعَ مِـــنْ أَوْصَـــافِهِ الوَصْـــفَا

قـــل لى عـــن وصْـــفٍ حُـــرُوفٌ لـــه ... أَرْبَعَـــةٌ مـــا نَقَصَـــتْ حَرْفَـــا

إذا وصـــفت الشَّـــخْصَ يَومًـــا بـــه ... فعَيْنُـــــهُ في دُبْـــــرِهِ تُلْفَـــــى

ولم يـــــزَلْ يَصْـــــحَبُ كُلاَّبَـــــةً ... بهـــا يجيـــد القَـــبْضَ وَالصَّـــرْفَا

ثانيـــهِ نِصْـــفُ العُشْـــرِ مَـــن ثَالِـــثٍ ... وَكُلُّـــــه لم يبلُـــــغِ الأَلْفَـــــا

يـــنقُصُ عنْهـــا بَـــلْ وعَـــنْ بَعْضِـــها ... ولم تكمِّـــــل نَاقِصًـــــا حلفَـــــا

مَوْصُـــوفُه نِصْـــفَانِ فـــانظُرْ لَـــهُ ... نَصَـــفًا ولا تنْظُـــرْ لـــه نِصْـــفَا

---

(٦٨) والباعث على خلق اللغز هو الاختبار الذى يتعرض له المسئول؛ لأن اللغز يحتاج إلى عدة عناصر ، السائل، والمسئول ، فالسائل يطرح اللغز وهو يعرف الإجابة ، والمسئول على يقين من ذلك ، ومع هذا فإن السائل لا ينطق بالإجابة عن السؤال إلا بعد أن يبذل فى ذلك جهدًا كبيرًا ، أما إذا عثر على الحل الصحيح فإنه يشعر بحالة اقتناع وثقة بالنفس . أشكال التعبير لنبيلة إبراهيم ، ص ١٨٤، ١٩٣ ، من فنون الأدب الشعبي فى التراث العربي للدكتور محمد رجب النجار : ١/١٨٠ . ١٨١

(٦٩) الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء : للدكتور أحمد فوزي الهيب : ص ٣٥٣

ثَانِيـــهِ مَـــعْ ثالثِـــهِ فِعلُـــه مَـــتَى يُشـــاجِر عِرْسَـــهُ عُنْفَـــا
يُظْهِـــرُ فِي أفْعَالِـــهِ خِفَّـــةً وهْـــوَ لِثِقْـــلٍ لَمْ يَغِـــبْ طَرْفَـــا
كـــالبُومِ شُـــؤْمٌ وهـــو إلْـــفٌ لنـــا فَهَـــلْ رَأَيْـــتُم بُومَـــةً إلِفَـــا
أجِـبْ وعـن ذَا الوصْـفِ أفصـحْ لنَـا لا ذُقْـــتَ للـــدَّهْرِ إذًا صَـــرْفَا [٧٠]

فأجابه أخوه بقصيدة طويلة مطلعها :

جـــاءَتْ فَـــزَادَتْ رَوْضَـــنَا عَرْفَـــا بَـــلْ قلَّـــدَتْ آذانَنَـــا شُـــنْفَا[٧١]

وكما سبق أن قلنا فقد دخلت الألغاز مجال المسائل الفقهية وأكثر النحاة والقضاة والفقهاء وأهل الفرائض ومن ينتحلون الحكم والفلسفة منها ، ومما يلاحظ على هذه الألغاز أن الفن أغلب عليها [٧٢] .

ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه بعض الفقهاء إلى أبى بكر العمرى ملغزًا :

مـــآنِ مُنْفَـــرِدَانِ كُـــلّ منْهُمَـــا يَجْـــرِى بالاسْـــتِعْمَالِ فِي التَّطْهِـــيرِ
كُـــلُّ طَهُـــورٍ وَحْـــدَهُ حَـــتَّى إذَا جُمِعَـــا يَعُـــودُ الكُـــلُّ غَيْـــرَ طَهُـــورِ

فأجابه بقوله :

مَـــاءٌ تَغَيَّـــرَ فِي المَمَـــرِّ أو المقَـــرِّ يَجُـــوزُ مِنْـــهُ الأخْـــذُ للتَّطْهِـــيرِ
وإذا خلطـت بِـهِ الطهـور وقـدْ نَمَـا التَّغْيِـيرُ عَـادَ الكُـلُّ غَـير طَهُـورِ

وكذلك كان للنحاة ألغازهم الرائعة والتي كانوا يتداولونها فيما بينهم ، ومن ذلك : اللغز الذى أرسل إلى نجم الدين الحلفاوى الأنصارى الحلبى المتوفى سنة (١٠٥٤ هـ = ١٦٤٤م) ، وفيه سؤال نحوى[٧٣].

وكان أكثر شعر عبد الله بن عبد الرحمن بن على الدنوشرى المتوفى سنة (١٠٢٥ هـ = ١٦١٦م) ، في نظم المسائل النحوية في ألغاز رائعة [٧٤] .

وبذلك أصبحت الألغاز منتشرة بين شعراء مصر في العصر العثماني حتى لم يسلم منها شاعر ، ولم يخل منها ديوان ، واشتهر بعض الشعراء بهذا الفن ، وعرف به ، منهم ابن عُنين الذي أفرد بابًا كاملاً في ديوانه لهذا النوع من الشعر ، وكذلك فعل الشرف الأنصاري ، وصفي الدين الحلي ، وابن الساعاتي ، وحسن بن إبراهيم البخشي الحلبي ، وآخرون كثير[٧٥] .

([٧٠]) خلاصة الأثر للمحبي : ٤ / ٢٧٧ ، نفحة الريحانة : ١ / ١٨٦

([٧١]) خلاصة الأثر للمحبي : ٤ / ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، نفحة الريحانة : ١ / ١٨٧ـ ١٨٨

([٧٢]) تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعي : ٣ / ٤٠٦ ـ ٤٠٧

([٧٣]) خلاصة الأثر للمحبي : ٤ / ١٨١ ـ ١٨٢

([٧٤]) خلاصة الأثر للمحبي : ٣ / ٥٣

([٧٥]) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، للدكتور بكري شيخ أمين ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠م .

خاتمة :

من دراسة المضحك والفكاهة في الأدب العربي في العصر العثماني يتبين لنا عدة أمور :

١. تعدُّ مادة الفكاهة في تلك المرحلة امتدادًا واضحا لما كان قبلها من فكاهة في عصور سابقة وبخاصة في العصر المملوكى ، فعندما ظهر خيال الظل في الأدب المملوكي استمر وجود ه في العصر العثماني مع كثير من التطوير.

٢. كانت موضوعات الفكاهة مشتركة بين الأدب العربي في العصر العثماني وما قبله من عصور ، ومن ذلك الضحك من الأصوات والأشكال والطعام والشراب وهكذا .

٣. كانت اللغة العامية شكلا من أشكال الضحك والفكاهة في العصر العثماني .

٤. كما كانت اللغة العربية الفصحى والتصحيف فيها وفي النحو العربي لونًا من ألوان الفكاهة في تلك الفترة .

٥. دخلت أنواع جديدة على الفكاهة في العصر العثماني مثل الألغاز والأحاجى والمواويل والمسرحيات الفكاهية وبخاصة في نهاية العصر العثماني التي كانت غالبًا باللغة العامية .

أهم المصادر والمراجع :

١. إبراهيم حمادة : خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال (دراسة وتحقيق) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، مصر ، ١٩٦٣م .

٢. أحمد صادق الجمال : الأدب العامى في مصر في العصر المملوكى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م .

٣. جمال عبد الغفار إبراهيم بدوي : المضحك وتطوره في النثر العباسي حتى نهاية القرن الرابع ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ٢٠٠١م .

٤. سها عبد الستار السطوحي – السخرية في الأدب العربي الحديث (عبد العزيز البشري نموذجًا) – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ٢٠٠٧ م .

٥. شاكر عبد الحميد : الفكاهة والضحك ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، عدد رقم ٢٨٩ ، شوال ١٤٢٣ هـ = يناير ٢٠٠٣ م .

٦. شهاب الدين الخفاجي : ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، طبعة عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٧م.

٧. شوقي ضيف : الجزيرة ، الشام ، دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ.

٨. شوقي ضيف : عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ.

٩. شوقي ضيف : الفكاهة في مصر – سلسلة اقرأ – دار المعارف – القاهرة – عدد ٥١١ – الطبعة الثالثة .

١٠. العاملي (بهاء الدين) : الكشكول ، تحقيق : الطاهر أحمد الزاوي ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٨م .

١١. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، ١٩٩٠م .

١٢. عبد العزيز الأهوانى: الزجل في الأندلس ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢م .

١٣. عبد المجيد قطامش : الأمثال العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ، رسالة دكتوراه بدار العلوم ، ١٩٧٥م.

١٤. عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربى (العصر العثمانى) ، دار الفكر للطباعة والتوزيع ، دمشق ، ١٩٨٩م .

١٥. كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (العصر العثماني) ، القسم الثامن ، ترجمة :محمود فهمي حجازي ، وعمر صابر عبد الجليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥م .

١٦. المحبي (محمد أمين) : ذيل نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، طبع بدار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ١٣٨٧هـ = ١٩٦٩م .

١٧. المحبي (محمد أمين) : نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، طبع بدار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٩ م .

١٨. المحبي (محمد أمين) : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، طبعة مصر ، ١٢٨٤ هـ.

١٩. محمد زكريا عناني : الموشحات الأندلسية ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد ٣١ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، شعبان / رمضان ١٤٠٠ هـ = يوليه ١٩٨٠م .

٢٠. يوسف بن محمد بن محمد الشربيني ، هز القحوف في شرح قصيد أبي شادوف – المطبعة الأميرية ببولاق ، الطبعة الثانية ، ١٣٠٨ هـ .

21 - Franz Rosenthal, Erken İslamda Mizah, çev.
Ahmet Arslan, İris Yayıncılık, İstanbul, 1997.

22 - Sait Uylaş, Arap Edebiyatında Mizah, Mısır Örneği, Ankara, 2010.